دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

حاجتنا إلى المسيح

الأب متى المسكين

إن أعظم الاختبارات التي لفتت نظري بشدة في بكور حياتي المسيحية هو أنني حينما أشعر بحاجتي إلى أشياء كثيرة تنقصني في معاملاتي مع الناس أو الكنيسة أو الرهبان ، يبلغ إلى الضيق والألم والحزن مبلغاً شديداً يضعف من نشاطي وخدمتي وتأثيري في الآخرين ، ولكن بمجرد أن أقترب من شخص يسوع ربي وأحسه وكأنه آت من بعيد بعد غيبة ، أكون أنا دائما السبب في طولها أو قصرها ، أقول حينما أستشعره يقترب مني ، يطفر قلبي فرحاً وينجمع عقلي مرة واحدة فيسقط عني كل إحساس بحاجاتي الكثيرة وعوزي ونقصي ويرتفع المسيح فوق أفق حياتي كلها. حينئذ أراه هو أكثر من كل حاجاتي وأحس بملئه يفيض ويجرف حياتي في تيار حبه بتسيم يفوق العقل .

- وكذلك بنفس المقدار والقوة حينما كانت تعصف

لى أفكار كثيرة من جهة معاملات الله أو عنايته على المستوى الخاص أو العام وتضيق نفسى فى داخلى جداً حتى الاختناق ، لأنى أود الله دائماً أن يظهر متفوقاً على كل المستويات ، مستوى الرحمة تارة ومستوى العدل والتأديب تارة أخرى ، مستوى الأبوة الحانية تارة ومستوى السيادة والنعمة تارة أخرى ، فأظل تتجاذبنى المشاعر المتعارضة دون أى راحة أو سلام ، ولكن بمجرد أن أستشعره يقترب منى تهدأ نفسى فى الحال مرة واحدة وتسقط عنى جميع التساؤلات والهموم ويظهر المسيح متفوقا جداً على كل موازين تفكيرنا سواء كانت من جهة رحمتنا أو عدلنا ، أبوتنا أو سيادتنا جميعاً ! ... وفى هذه اللحظات ما يعرفنا المسيح بسر مشيئته .

بهذين الاختبارين علمت يقيناً أن المسيح هو حاجة حياتنا الوحيدة التى تنقصنا وأننا إذا بعدنا عنه ازدادت

حاجاتنا إلى أشياء كثيرة من هذا العالم ، وازداد قلقنا جداً من جهة مصير الأمور الخاصة والعامة فى حياتنا .

فلماذا يظهر شخص المسيح هكذا كأنه ملء كل شيء !! والجواب الوحيد الذى يرد مرة واحدة على عشرة آلاف سؤال ، أو على وجه الأصح - يلغى بوجوده كل سؤال ؟

للجواب على ذلك يلزمنا أن ندرك أن البشرية تجمع فى كيانها عالمين متناقضين ، عالم المادة وعالم الروح المنبث فى كيان الإنسان يقابلها واقع مادى متهالك فى حياة الإنسان قد يصل إلى أمثلة غاية فى الانحطاط والحقارة . فقد يقتل الإنسان أخاه من أجل لقمة عيش أو يبيع ميراثه السمائى بأكلة عدس ! هذا التوتر والتمزق الكائن فى صميم كيان الإنسان بين المثل العليا للروح وواقع الجسديات ثبت بحسب تاريخ المدنيات والفلسفات والعلوم أنه لا يوجد أى أمل فى إقامة حالة صلح « طبيعى بينهما » سواء بتدخل العقل أو الحكمة أو تهذيب المهارات أو مجرد الأوامر والوصايا الإلهية أو حتى

التأديب بالعصى !! ... فبمجرد أن تعصف الغرائز تمتد يد الإنسان إلى سلاح التمرد على كل القيم الروحية، فيصاب الإنسان بعمى روحى مؤقت يجعله يقترف أشنع التعديات حتى ضد نفسه !..

هنا يظهر المسيح ببشريته الكاملة ولاهوته الكامل، المعجزة العظمى التى صالحت كل الواقع البشرى — من جهة غرائزه وعواطفه وانفعالاته الجسدية فى احتكاكه بالآخرين والزمن وحاجاته — ونواقصه وتعثراته الخاصة صالحه مع المثل العليا الروحية أو بالحرى مع الله نفسه صلحاً كاملا ودائماً وأبدياً بآن واحدا ، وصلحاً عميقاً متجذراً فى أعماق الإنسان نفسه ، لأن كل ما للمسيح صار ملكاً البشرية !!

هنا صار المسيح معجزة الإنسان ومعجزة الله بآن واحد ، معجزة الإنسان فى وصوله إلى عمق طبيعة الله ومعجزة الله فى دخوله إلى عمق طبيعة الإنسان ؟؟

ولكي ندخل فى نور هذه المعجزة يلزمنا أن ندرك أن هذا الصلح لا يقوم على نظرية مهما تألفت النظريات ووضع لها آلاف المجلدات ، ولا على مجرد تنفيذ وصايا . فالصلح الذى أكمله المسيح هو صلح شخصى تم فى المسيح نفسه ، بقدراته هو وليس بقدراتنا نحن . وكانت نتيجة هذه المصالحة فائقة للعقل البشرى . ويكفى أن ندرك أنها بمجرد أن تمت فى تجسد المسيح وصلبه شملت البشرية فى شخص يسوع الذى يمثلها لدى الله الأب .

الإنسان تصالح مع نفسه ، لأن الله تصالح فى جسم بشريتنا الذى للمسيح ، الذى أخذه منا . لذلك نقول بمنتهى الثقة والاختصار أننا تصالحنا مع الله فى المسيح ! ! هذا الصلح شخصى للغاية ، هو نوع من الوساطة الفريدة التى قام بها هذا الوسيط الوحيد — المسيح — بين الله والناس ، فنشأ عنها قوة جديدة دخلت العالم بل دخلت السماء !

إن الصورة الأصغر والأضعف فى مسيحيتنا هى محاولاتنا الفاشلة فى تطبيق وصايا يسوع المسيح على مشاكلنا اليومية بدون الرب يسوع نفسه . أما الصورة الأقوى والأعظم فهى أن يدخل « شخص المسيح » حياتنا فتسقط فى الحال كل مشاكلنا ، ونرتفع فى الحال إلى مستوى وصايا يسوع بدون مهارة شخصية على الإطلاق ! !

المرارة التى يذوقها الإنسان المسيحى فى داخله من جراء التمزق اليومى حينما تصطدم نفسه بوصايا المسيح ويقف عاجزاً تماماً عن اللحاق بها مع أنه يحبها ، هى ناتجة من كونه يحاول أن يصل إلى وصايا المسيح بدون المسيح ، وهذا مستحيل !.. المسيح وضع لنا الوصية لكى نختبر بها وجوده « امتحنوا أنفسكم ، أم لستم تعرفون أنفسكم أن يسوع المسيح ، هو فيكم إن لم تكونوا مرفوضين » (٢ كو ١٣ : ٥) .

لذلك يقول الرب « الذى يحبنى أن يحفظ وصاياى ( ) بمعنى أن الذى يحبنى هو الذى يستطيع أن يعمل وصاياى !! .. شخص المسيح أولا !! وبعد ذلك كل ما للمسيح ! ..

المسيحى مطالب دائماً وفى كل لحظة أن يعلن مسيحيته لغير المسيحى وللمسيحى بحد سواء. هذه المطالبة الملحة تجعله فى توتر دائم لأنه يتحتم عليه أن يكون على مستوى الحق حتى يراه ويكشفه . وعلى مستوى الإيمان ، حتى يتصرف بمقتضاه قبل أن يعلنه وإلا أصبح مخزياً لنفسه ولمسيحه .

ولكن من ذا الذى يستطيع أن يعلن المسيح ، والمسيح فى قامته شىء لا يمكن بلوغه ؟ فهو قمة كل ما فى السماء وما فى الأرض يجمع كل شىء فى شخصه ؟ ثم فوق ذلك كله هو الصورة المنظورة لله غير المنظور فمن ذا الذى يستطيع أن يعلنه أو يشرحه ؟ عقل الإنسان أمر مستحيل ، بلاغة ومنطق ؟ أمر مستحيل .

المسيح وحده هو القادر أن يعلن المسيح . حينما أستشعره يقترب منى ألقى جميع أسلحتى أو هى تسقط كلها من تلقاء ذاتها ، فهو وحده لسان حقى وإيمانى الذى يتكلم فى ، فانه قادر أن يعلن ذاته بطرق لا حصر لها وبسر لا ينطق به . فشخص المسيح قوة لا نهائية تعلن ذاتها فى الإنسان بدون أى جهد من الإنسان ، بل إن جهد الإنسان هو المعطل الأكبر لاستعلان المسيح ، الحاجة فقط ماسة جداً أن نستشعر قدومه إلينا وأن نستقبله بكل كياننا ثم نتركه يتكلم ويعمل فينا .

اعتراض الناس على مسيحيتنا لا يقوم إطلاقاً على شخص المسيح ، ولكنه يقوم على عدم وجود المسيح فى مسيحيتنا . لو كان المسيح «بلاهوته» كائن فى حياتنا ، ما اعترض إنسان قط على لاهوت المسيح ! !

الناس عثروا فى المسيح لأننا وضعنا المسيح فى حياتنا جنباً إلى جنب على مستوى الحاجيات الأخرى ، على مستوى السعى لأكل خبز الجسد بل على مستوى المتعة

والفسحة والتسلية والعلم والسياسة . فظهر المسيح الذى فينا أقل من قامته الحقيقية ألف ألف مرة .. فإن كان المسيح إلهاً ، لزم أن يكون أعلى وأعظم وأسمى من كل شيء فى حياتنا ، بل أعظم من حياتنا ..

الحاجة ماسة جداً أن تكون مسيحيتنا هى المسيح نفسه ، وليس مبادئنا أو أطماعنا أو كبريائنا وخبثنا أو شهوتنا للظهور والتكريم والمجد الدنيوى الباطل الذى نخفيه وراء إسم يسوع ! !

الناس لا يكرهون المسيح قط . المسيح محبوب ، وهو فعلا « ابن المحبة » ، والمحبة ذاتها بكل أعماقها التى يشتهيها كل إنسان ، الناس يكرهون أخلاقنا وسلوكنا وصفاتنا المزيفة التى صنعناها باسم المسيح كذباً ورياء

إن التفريق بين المسيحية والمسيح أصبح اليوم أكثر من كل العصور السالفة ظهوراً فينا بل وصراخاً ضدنا ! لأن سلوكنا وأعمالنا وكلماتنا تخرج مسيحية فقط ولكنها لا تصدر عن المسيح قط ، فهى ليست

لها روح المسيح الزكية . لذلك لا نتعجب إن كانت مسيحيتنا غير محبوبة !

الحاجة ماسة جداً أن نتوجه إلى شخص المسيح مرة أخرى ليظهر فى حياتنا ، فتخرج نهضة تتلاشى فيها أعمالنا المزيفة وتظهر أعمال الحقيقة التى تستطيع أن تشهد له بدون تدخل من عبقريتنا المئتة ! .. لأن الناس يريدون أن يأتوا إلى المسيح وليس لأشخاصنا الترابية . هل يمكن أن نوافق على ذلك ؟ إن المشكلة العظمى التى تعترض طريقنا إلى المسيح هى أننا نمسك بالمسيح ، وعند الخطر أو التعب نظهر أنفسنا ولا يظهر المسيح !

وأخطر ما فى هذه الضلالة أن أنفسنا تظهر جيدة فى نظرنا ؛ لذلك لا نجد أى حاجة أن نترك أنفسنا لنمسك بالمسيح ، فيظل المسيح الحقيقى مخفى عن عيون الناس وأسماعهم ! ! وحتى إذا ظهرت أنفسنا أمام أعيننا أحياناً أنها حقيرة ومخادعة وكاذبة وتعيش فى ضلالة ، إذ تبشر بالمسيح والمسيح غائب عنها تماماً ،

فإنها لا تقوى على التغيير ولا تجد القناعة الكافية أن تجازف وتموت ليحيها المسيح لنفسه من جديد : لأن الحياة لحساب هذا الدهر لذيذة جداً ومغذية للنفس التى تطلب مجدها .. وخصوصاً إذا أضافت إليها أقوال مسيحية فحينئذ تأخذ صورة المجد التوازنى المزيف ولا يستطيع أحد أن يكشفها إلا الذين فيهم نور يسوع الحقيقى !! .. متى نؤمن بالآية : « فاننا لسنا نكرز بأنفسنا بل المسيح يسوع رباً ، ولكن بأنفسنا عبيداً من أجل يسوع » (٢ كو ٤ : ٥) .

كم من خدام وكارزين قدموا ذواتهم للناس متخفية فى صورة تعاليم المسيح فعثر الناس المسيح ووقع اللوم والحزى ليس على أشخاصهم بل على شخص المسيح الضعيف فيهم !! مع أن الذى يشهد للمسيح يتحتم عليه بالضرورة أن يأخذ من المسيح ويعطى للاخرين . هذه هى روح الشهادة ومعناها ، وهى تتم بتوسط الروح القدس العارف بكل ما للمسيح ويتوق

توقاً أن يشهد له فينا كما ينبغي ! ! .. ولكن كم مرة أحزنا الروح القدس ومنعناه عن الشهادة عندما جعلنا شهادة يسوع تخدم أمجادنا ومنافعنا الخاصة ؟ الحاجة ماسة أن نتحرر من ذواتنا ، هل نقبل؟

ثم من يقرأ سيرة يسوع المسيح ولا يشعر في عمق أعماقه أن المسيح هو أجمل وأوضح صورة لله ؟ فان كان الله هو كالمسيح ، فالله فعلا إله محب للبشر حقاً وأب حاني جداً ومقتدر بلا حدود ! « من رآني فقد رأى الأب » .

إن البشرية ستظل تعيسه حتى تجد الله ، ولن تجد الله إلا في المسيح . كان ينبغي أن يجد المسيح في حياتنا فرصة ليظهر قدرته هذه السرمدية ولاهوته ليؤمن الناس بأنه ابن الله حقاً ليكون لهم به خلاص وحياة أبدية ، وليروا فيه الأب حقاً . ولكن نحن المسئولون عن تعطيل الإيمان بالمسيح بسبب تقديم ذواتنا بدل تقديم المسيح الحقيقي ، وهكذا تمجدت بشريتنا على حساب لاهوته ! !

إن عمل المسيح الفدائى يتركز فى النهاية فى أن نكون نكون مثله ، نحمل أخلاقه وصفاته ، عندما يملأ حياتنا ويملك علينا ، لا عن طريق التعليم والتهذيب ، كما يقول بولس الرسول « ليحل المسيح بالإيمان فى قلوبكم » (أفسس ٣ : ١٧)

وعندما يحمل الناس المسيح وبالتالى أخلاق المسيح وصفاته ، فقد يكون معناه أن البشرية تجاوزت نفسها ، وتجاوزت بالتالى كل عجزها ومرضها وموتها ودخلت فى طورها الممجد الذى لا يمت قط إلى ميراثها الترابى الميت . هذه هى الخليقة الجديدة للانسان ، ثم هذه هى قدرة المسيح الإلهية أن يرفع الإنسان فوق ذاته فيتجاوز ذاته ويدخل بقوة المسيح وحياته الفعالة إلى مجال الفعل والحرية الإلهية ، فيستجيب الإنسان استجابة حرة واعية فرحة لله ولكل إيحاءاته بدون قصور وبدون كلل ، هذا هو مستقبل الإنسان الجديد فى المسيح ، وهذا هو ميلاده الجديد . لذلك دعى المسيح بحق آدم الثانى ! !

إذن فكيف نولد لله بدون مسيح ؟ هذا مستحيل .

ثم لاننسى إطلاقاً أن المسيح أسس عمله فى البشرية على أساس الصليب ، والصليب وإن كان قد دخل حياة المسيح كفعل فداء بالدرجة الأولى إلا أنه سلمه لنا كنموذج حياة وسلوك . فالذى لا يعيش بمبدأ الصليب ولا يفكر بمبدأ الصليب ، لن يدرك عظمة المسيح التى بلغها بالصليب ، ولن يفهم ويقدر معنى الفداء الحقيقى أما إذا اختبرنا الصليب فى حياتنا وتذوقناه عن وعى وسرور ، فإن ذلك سيكون المدخل السرى لمعرفة المسيح ومعرفة عظمة قدرته الفائقة نحونا ! ثم من خلال شركة آلام الصليب ندخل مع المسيح فى عهد أبدى كوارثين لكل أمجاد وتعزيات الآب فى السماء .

يا لسر المسيح بل يالسر الإنسان فى المسيح ..

القمص متى المسكين